فديتك يا ليلى

أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة
www.gulfkids.com
موقع ومنتدى دراسات وبحوث المعوقين

يوسف السباعي

قدرتك يا ليلى

آثار علي الرمال

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الإهـــــداء

إلى العزيز الذى لم أهد له بعد كتابا وهو أحق الأعزاء بالإهداء .

إلى قارئتى المجهولة .

وقارئى المجهول .

إلى صديقَى الروح اللذين أوثقت الكتب عرى المحبة بيننا دون أن يرى أحدنا الآخر .

أهدى كتابى هذا .

رمز صداقة روحية خالصة .

يوسف السباعى

الفصل الأول

رجل لا يدرى

ضباب كثيف فى أخدود من الرمال .. كان يحاول دائما أن يشق طريقه فيه ، وساقاه يحس بهما متثاقلتان كأنهما قد شدتا إلى الأرض بأثقال تجعل السير وئيدا عسيرا

وهو يحاول أن يدفع نفسه إلى الأمام دفعا لا يكاد ينزع قدمه الغائصة فى الرمال الناعمة حتى يدفعهما لكى تغوص فى الرمال مرة أخرى .

ورغم كل ذلك فقد كان يجاهد فى التقدم جهاد المستميت .... غير عابىء بثقل قدميه أو بلين الرمال .... كان يريد الخلاص من ذلك الضباب المتكاثف الذى يكاد يكتم أنفاسه .. وكان به لهفة على أن يبصر ما وراء تلك الظلمات المعتمة .

إن هناك لا شك شيئا فى نهاية ذلك الأخدود الضيق العميق ... شيئا يريد الوصول إليه ولو بشق الأنفس ... شيئا هاما حيويا يشعر أن حياته معلقة به .

ما هو ؟... وما كنهه ؟ . إن ذهنه لا يستطيع تحديده بالضبط . هذه المشقة التى يعانيها وسط الرمال الثقيلة والضباب المعتم تستغرق كل تفكيره وتستنفد كل جهده .. فتخلط عليه المرئيات ويروح منها ذهنه فى « دوامة » سريعة تمزج كل ما به وتتركه عاجزا حائرا .

حسن ... ما عليه من بأس .. ليتقدم ... ويتقدم ... لا داعى للتفكير .. كل ما عليه هو أن يثابر على السير ... وينتزع أقدامه المتقلة بالحديد ... من الرمال المطبقة عليها فيخطو الخطوة تلو الخطوة ... فى جهد ومشقة .. وجلد واستماتة .. إنه لابد فى النهاية واصل .

ورفع يده فمسح بها قطرات تندى بها جبينه .

عرق ؟!! ... أم رشاش ؟

ولكن من أين له الرشاش وسط هذه الرمال ؟! إنه عرق .. لشد ما أجهد نفسه فى السير .. ولكنه مع ذلك لن يتوقف .

وهكذا استمر فى السير .. بخطا مجهدة متثاقلة .. فلا تفكير فى شىء سوى أن يبلغ النهاية ويصل إلى ذلك الشىء الذى يريد الوصول إليه .

وفجاة توقف فى مكانه .

ما هذا ؟.. لقد سمع صرخة .. أجل .. صرخة حادة شقت مسامعه .. أتراه واهما ؟!!

إنها تبدو وكأنها آتية من وراء الضباب .. مقبلة من نهاية الطريق .. وكأنه بها صادرة من ذلك الشىء الذى يجد فى الوصول إليه .

إنه إذا إنسان .. بدليل أنه يصرخ .. إنه يريد الذهاب إلى إنسان .. أجل .. أجل .. رجل ؟! امرأة ؟! لا يذكر .

ولكن لماذا يصرخ هذا الشىء الذى فى نهاية الطريق ؟ لعله فى ضيق أو فى خطر ، وهو يريد أن يسعفه . إذا فهو يعرف أنه قادم إليه .. لم إذا لا يكرر الصياح ؟! لم لا يصيح مرة ثانية وثالثة حتى يبلغه ؟! أيكون عاجزا عن الصياح ؟! ألا يحتمل أن يكون قد أطبق عليه الخطر ؟! أما يجب إذا أن يحث الخطا إليه ؟! أجل .. يجب أن يسرع جاهدا . قاتل الله هذه الرمال المنهالة تحت قدميه ... إنها تعوقه عن العدو .

إلى متى هذا السير ؟! وما بال الغمة لا تنقشع ، والضباب لا يتبـدد ، والرمال لا تنقطع ! والطريق لا تبدو نهايته ؟! .

إلى متى كل هذا ؟! وماذا يجبره على السير .. أمن أجـل صرخـة فـى الهواء ؟! وصرخة من ؟ لا يدرى ، بل ربما كـانت مجـرد وهـم مـن صنـع الذهن المجهد والنفس المكدودة .

أف لكل هذا ؟ يجب عليه أن يكف عن هذا السير المضنـى ... يجـب أن يتوقف أو يعود القهقـرى ... ولكـن إلى أيـن ؟! إنـه لا يعـرف .. لا يعرف شيئا عن كل ما حوله ... لا شيء سوى هذا الأخدود الممتـد مـن الرمال ، والضباب المحيط المتكاثف .

لا .. لا .. ليس أمامه سوى السير ... إن فيـه علـى الأقـل أمـلا فـى شيء ... أى شيء .

آه من ذلك الشيء لو يستطيع بلوغه !!.

وعاود السير مرة أخرى ينقل قدميـه فـى إعيـاء ويبـل شـفتيه بطـرف لسانه ، ويمسح بكفه قطرات العرق المتصببة من جبينه .

ومرة أخرى أحـس بقدميـة تتسـمران فـى الأرض هـذه المـرة لا لبـس فيهـا ولا غمـوض ... لم تكـن صرخـة مبهمـة كـالمرة السـابقة .. بـل كان نداء واضحا مميزا ... كان نداء باسمه عاليا حادا يشق الفراغ المحيـط به .

من أين أتى ؟.. من أمامه ؟ أين نهاية الطريق ؟

ما ذلك الشيء الذى يريد الوصول إليه ؟ لا يستطيع أن يحدد بالضبط من أين أتى .. ولكنه مع ذلـك يجـزم بسـماعه ... قـد يكـون آتيـا مـن أمامه .. أو .. من ورائه .

من وراء ؟!!

إذا فهناك من يناديه من وراء !

من ؟ ... ولم ؟.. وماذا يريد منه !

أيطارده ؟ ربما .. إذا فهو مطارد .. من إنسان يعدو وراءه .

ويلاحقه .. إذا فهذا الشيء كامن وراءه لا أمامه .. وهو محد فى النأى عنه لا فى بلوغه ... فى الفرار منه لا فى اللحاق به ...

ولكن لم يطارده ؟ ماذا يبغى منه ؟

وهنا تذكر أن يده اليسرى غير خالية ... إنه يحمل بها حقيبة صغيرة .. آه .. تلك هى السبب .. إنها بغية المطاردة .. وغرض الملاحق ..

وشدد عليها قبضته .. وأطبق عليها أصابعه .. حتى نفرت عروق يده .

لن يمكنهم منها .. لن يستطيع أحد أن يأخذها منه .. لن يجسر إنسان على الاستيلاء عليها أو فتحها .. أو معرفة ما بها .

ولكن ماذا بها ؟ لماذا يخشى عليها كل هذه الخشية ؟.

ماذا بها ؟.. ماذا بها ؟ ويحه !! إنه هو نفسه لا يعرف ماذا بها . ليفتحها إذا ويرى ماذا بها .

لا ... لا ... إنه لا يجسر .. إن ما بها مخيف ، مخيف جدا .. ماذا بها ؟.. إنه يعرف .. لمن الله هذا الذهن المضطرب والذاكرة المشوشة .

آه .. لقد تذكر .

اللئام ... السفلة ... إنهم يريدون ما بها ... لكى يودوا به ... ويقضوا عليه .

إن بها مستند إدانته ... بها أدلة جنايته ... أدلة حاسمة لا تقبل شكا ولا نقضا ... بها آثار الجريمة ... وأكثر من هذا .. بها السلاح الذى قتل به ضحيته .

إنه قاتل .. هارب يمعن فى الابتعاد عن جريمته وعن مطارديه ... حاملا معه آثاره وسلاحه .

ولكن لم لا يقذف بها ويتخلص منها ؟! لم يلصقها بنفسه ... ويقيمها شاهدا على كل ما فعل ؟!.

ارمها بعيدا ... أيها الأحمق .

لا ... لا ... إنه لا يستطيع ... إن أصابعه تزداد بها تشبثا وعليها إطباقا ... أتراه يخشى أن يعثروا عليها، ويعرفوا ما بها ؟! ربما .. ولكن هناك دافعا أقوى من هذا يدفعه إلى التشبث بها ... إنه يريدها لنفسه .. إنه يحس أنها جزء منه .

ولكن فيم وقوفه هكذا والمطارد لابد فى أعقابه . اجر .. اجر .. تقدم .. تقدم ... انج بنفسك ... وفر من أمامه .

ومرة أخرى عاود السير فى استماتة واستيئاس .

كان يتحرك بالقوة الدافعة من خلفه .. قوة الخشية والخوف والرغبة فى الفرار ، بعد أن كان يتحرك بالقوة الجاذبة من أمامه ... قوة اللهفة والشوق والرغبة فى الوصول .

وعادت قدماه تدفعان فى الرمال وتنزعان منها ... وشمل الضباب المحيط ذهنه كما شمل جسده .. ولم يعد يفكر فى غير شىء واحد ... السير ... السير إلى الأمام ... السير قدما .

وأخيرا بدا له أنه قد وصل .

وصل ؟.. إلى أين ؟ أنسى أنه مطارد هارب ؟! وأن غرضه من هذا السير المنهك الشاق ... ليس الوصول إلى شىء .. بل الفرار من شىء ؟!

ولكنه مع ذلك يعتقد أنه قد وصل .. إن هناك أصواتا تناديه .. أصواتا رقيقة ناعمة ... والضباب يوشك أن ينقشع .. والرمال تزداد صلابة تحت قدميه .. وساقية تشتدان والأثقال المعلقة بهما تخف شيئا فشيئا .. والرياح تهب حاملة فى طياتها نسمات رطبة ندية تبدد بها الضباب المخيم .

أجل ... إنه يوشك أن يصل .. إنه ليس بهارب ولا قاتل .. يجب أن يجد فى السير ... لا خوفا مما وراءه .. بل رغبة فيما أمامه .

وانطلق يعدو ... والأصوات المنبعثة من نهاية الطريق تزداد وضوحا .. إنها تهتف باسمه .. راجية مستعطفة .. ذائبة .

إنها تناديه فى شوق ولهفة .. وهو أيضا يحس لها ذلك الشوق وتلك اللهفة .. ليعد .. ليعد ... إنه يوشك أن يبلغها .

إن الأصوات تزداد وضوحا .. إنها تعلو ... تعلو .. ولم يعد هتافها رجاء واستعطافا ، بل أضحى استغاثة واستنجادا . اقترب ... اقترب .. إنها تريدك ... وإنها فى حاجة إليك . أغثها .. أدركها .

إنه آت .. آت .. إنه يسابق الريح ... لحظة واحدة ويصل إليها ... إن قوة خارقة تدفعه .. إنه لم يعد يحس بالرمال ولا بقدميه على الرمال .. إنه لم يعد يجرى .. وإنما يطير .. ليس له أقدام ، بل أجنحة ... ولم يعد يحس إلا بالريح تلفح وجهه .

لحظات بعدها يصل .. ثوان .. بل أقل .

إنه آت .. آت ...

وفجاة .. وبعد أن قارب الوصول ... وبعد أن كادت الرمال تنتهى والضباب ينقشع والنهاية تبدو ... أحس بموجة رملية جبارة عاتية تبرز له فجأة كالمارد فتنقض عليه ... وتصدمه صدمة عنيفة ... فيحاول المقاومة ... ولا تلبث موجة أخرى أن تتلوها .. ثانية وثالثة ... وإذا صراعه مع الرمال قد أضحى صراعا مع الموج .. وثقل الساقين قد أصاب الجسد كله ... ولم يعد يفيده فى قهر الموجة ضرب ذراعيه ولا قرع ساقيه ... بل وجد نفسه يعلو بين براثن الموج فى عنف ويهبط فى شدة .. وأنفاسه تتلاحق .. حتى يوشك أن يختنق .

والأصوات ما زالت تصيح به ... مستنجدة مستغيثة .. وهى تتباعد وراء الموج ... ضائعة بين صخبه ، متبددة فى ضجيجه .. وقد أخذت تخفت شيئا فشيئا ... حتى صمتت تماما .

وأخيرا بدأت الأنواء تهبط وتبسط ... وتوالت عليه بخفة الموجة تلو الموجة ... وتضاءل الصراع وهدأ ... وأضحت الرجات العنيفة من أسفل إلى أعلى بين طيات الأمواج العاتية ... هزات خفيفة لينة .. وتملكه استرخاء المستلقى فى راحة عقب جهد عنيف .. ولم يعد يحس من الصراع والضجة إلا بلمسات الموج المنتظمة تتوالى عليه فى رقة بين آونة وأخرى وكأنها جناح الطائر يمسه فى رفق .

ومضت برهة وهو من حاله تلك فى راحة تشبه الغيبوبة ، لا يكاد يحس إلا بالهزة المنتظمة والمسة المتواترة .

أجل ... استمرت الهزة ... وتوالت المسة ... ولكن لا من موج سائر ولا من جناح طائر ... بل من أشياء أثبت وأكثر صلابة ... أشياء ملموسة محدودة ... غير مبهمة ولا مشوشة ، ولا مضطربة ولا موهومة .

لقد أضحت هزة الموج هزة مقعد وثير جلس عليه مسترخيا بجوار نافذة .. وأضحت مسة جناح الطائر المتوالية المنتظمة أشياء تمر من وراء زجاج النافذة مرورا خاطفا لا تكاد تقبل حتى تذهب ، ولا تكاد تظهر حتى تختفى .

إنها أشياء متحركة .. أشبه بالقوائم أو الأعمدة ... بل إنها أعمدة فعلا .. أعمدة « تلغراف »... أو جذوع شجر ... أو خليط من هذا وذاك .

ولكن ما الذى يحركها ؟!

ويحه !! ما أغباه !! إنه هو الذى يتحرك ... أو هو الذى يجلس فى شىء متحرك ... أجل ... أجل .. هذا الحيز المحدود والمقاعد

To: www.al-mostafa.com

المتراصة ، والنوافذ الزجاجية ، والرفوف الشبكية ذات الحقائب لابد أن تكون فى عربة قطار .

وبدأ الصفير يتصاعد حادا من القاطرة أشبه بصرخات الاستغاثة .

إذا فهو على سفر .. وكل ما مر به لا يعدو أن يكون أضغات أحلام . ولكن لماذا السفر ؟ إلى أين ؟ ومن أين ؟

أهو متجه إلى شىء ... أم هارب من شىء ؟!

مرة ثانية لا يدرى ... تماما كما كان لا يدرى وهو يعدو فى الرمال الثقيلة والضباب المعتم ... إلى أين ؟! ومن أين ؟

لا يدرى ... لا يدرى .

بل إنه لا يدرى الفاصل بين الحلم والحقيقة ... واليقظة والغفوة ... إن كل ما فى ذهنه مبهم مشوش مضطرب .

أين الأحلام من اليقظة ! وأين اليقظة من الأحلام !! متى يكون فى حلم ، ومتى يكون يقظانا ؟! من هو ؟! وماذا يريد ؟ إلى أين يذهب ؟! ومن أين أتى ؟

أنه لا يدرى ... لا يدرى .

كل ما يدريه عن نفسه .. هو أنه لا يدرى شيئا ، ولا يحس بشىء .. إلا ذلك الحزن المبهم والخوف الغامض .

وبحركة لا إرادية أطبق قبضته اليسرى بشدة وعنف .

وأحس بشىء من الطمأنينة وهو يجد الشىء الذى أطبق عليه بيده ما زال موجودا ... أجل .. كانت الحقيبة ما زالت فى موضعها ..

حمدا لله .. لن يستطيعوا أخذها منه .. ولن يستطيعوا رؤية ما بها .. إنه يريدها .. ويخشى مما بها .

إن بها حياته .. وفيها حتفه .

أهو قاتل حقا ؟! من قتل ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ .. يجب عليه أن يهرب .. يجب أن يعدو .. يعدو .. بدل أن يجلس هكذا مسترخيا متخاذلا .

ومرة أخرى أحس أنه يوشك أن يخوض أخدود الرمال .. ويغرق فى أمواج الضباب ... عندما وجد يدا تربت ساقة برفق.. وسمع صوتا رقيقا بجواره يقول له :

ـ لقد وصلنا .. إن القطار يدخل المحطة .. هيا بنا .

وجذبه الصوت مما أوشك أن يهوى إليه .. وتلفت إلى مصدره فوجد رجلا يجلس بجواره .. ميز فيه ذلك الوجه الباسم اللطيف الذى رافقه من أول السفر .. والذى رافقه أيضا قبل هذا .. بل يذكر أنه يرافقه دائما أينما حل .

إنه مطمئن إليه ... فوجهه يوحى بالثقة والطمأنينة.. وقد تذكر أنه قال له إنه صاحبه .. صاحبه ؟! من ؟! ... لقد نسى الاسم .. كما نسى كل شىء .. ولقد حاول أن يذكره بأشياء لم يستطع أن يذكرها .

لا يهم كل هذا .. المهم .. هو أن هذا الرفيق ... مبعث أمن وطمأنينة ... ولا يبدو منه ضير ولا خطر .. وليس هناك ضرر فى أن يستمع إليه ويتبعه ما دام هو نفسه لا يدرى .. إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .

فقط .. يجب أن يحرص على شىء واحد ... وهو الحقيبة !

يجب أن يطبق عليها جيدا ... يجب ألا يغفل عنها أبدا ... يجب ألا يسمح لأحد ـ أيا كان ـ أن يمسها أو يحاول فتحها أو الاستيلاء عليها .

وعاد يشدد القبض عليها وهو ينهض متبعا صاحبه ... وخرجا من باب الديوان الذى كانا يجلسان فيه والذى قد خلا إلا منهما .. ودلفا من الممر الضيق حتى وصلا إلى باب العربة ثم هبطا إلى الرصيف وسارا

بين الجموع المتحركة إلى خارج المحطة .. وعبرا الباب الذى وقف عليه عامل التذاكر . وفى الخارج دلفا إلى أحدى عربات الأجرة ... وصاح صاحبه بالسائق :

ـ شارع ماسبيرو .

تحركت العربة ومال هو إلى الوراء متكئا بظهره على ظهر المقعد وأطلق تنهيدة تحمل بعض الراحة والطمأنينة .. لقد كان فعلا يحس أنه أكثر طمأنينة وهو فى العربة منه وهو سائر فى فناء المحطة وسط الجموع المتحركة وبين صياح باعة الصحف والحمالين . لقد كان المنظر مألوفا لديه ، ولكنه مع ذلك كان يشعر منه بكثير من قلق وخشية .

هذا الزحام ، وتلك الصيحات والنداءات كانت تخيفه وتقلقه .. كان يخشى أن يتسلل نحوه أحد هؤلاء المحيطين به فيخطف الحقيبة ويعدو بين الناس فاضحا أمره .. ولكن ما شأن الناس به ؟ وبحقيبته ؟

من يدرى .. ربما كان أحدهم يعرف .

يعرف ماذا ؟

يعرف أنه قاتل .

قاتل ؟.. أهو قاتل حقا ؟

أجل .. أجل .. إنه قاتل .. يحس بعبء جريمته يتقل على روحه ويطبق على أنفاسه .

ولكن ليس هناك من يعرف جريمته غيره .. أو على الأقل هذا هو ما يخيل إليه .. ليس هناك من يتهمه بشىء ... كل من حوله ينظرون إليه نظرة طبيعية جدا .. أو على الأقل هذا هو ما يبدو منهم .

صاحبه مثلا .. هذا المخلوق الرقيق الجالس بجواره ... إنه يعامله معاملة إنسان شريف مهذب .. وليس بمجرم ولا قاتل .

إنه قطعا .. لا يدرى .

أم هو نفسه الذى لا يدرى ؟؟

من يدرى ؟!

يدرى ؟! لا يدرى !! تلك هى مصيبته .. هذا الذهن المشوش المضطرب .. والنفس الضالة الحائرة .. الخائضة فى أخدود الرمال .. التائهة وسط الضباب .. الغريقة بين الأمواج .. المثقلة بالشعور بالوزر .. المذعورة .. الخائفة الوجلة .. التى لا يقر لها قرار .. والتى لا تفتأ تعدو أبدا ... هاربة من مجهول .. متلهفة على مجهول .

أنى له أن يدرى شيئا ... بعد كل هذا ؟!

ولكن أخير له أن يدرى .. أم يظل متخبطا فى دياجيره تلك ؟! لا .. لا يجب أن يدرى شيئا .

هذا الشخص الجالس بجواره مثلا قد أنبأه أنه صاحب قديم له ، عزيز عليه .. ومع ذلك هو لا يذكره .. أبدا .. ولقد أنبأه باسمه .. فنسيه .. كيف يخاطبه الآن ؟!

لا ضرورة لمخاطبته .. إن أفضل شىء له أن يلوذ بأهداب الصمت .. هذا هو آمن الطرق .. إن خير ما يستر به حاله .. هو ألا يتكلم .. لا داعى لأن يدرى شيئا ... يكفى أنه جالس فى أمان ، ويكفى أن تكون قبضته مشددة على الحقيبة .

وعاد يضم الحقيبة إليه جيدا ، ويشدد عليها قبضته .

وكانت السيارة تشق طريقها فى شارع الملكة .. وكان الوقت قبيل الغروب ووقفها المرور عند تقاطع شارع فؤاد بجوار مبنى الإسعاف .

وتلفت حوله يستطلع جلية الأمر .. فيم وقفها ؟... وما هذه العربات المتكاثرة حولها ؟! لماذا لا يسيرون ؟! هل هناك شىء ؟! .

وعاودت العربة سيرها .. هذا الطريق يعرفه جيدا .. لقد سبق له أن مر به فيما مضى .. متى ؟ .. لا يذكر .. ولكنه يعرف هذه المبانى ، وهذه الحوانيت .. هذا الجامع القائم على يمينه ليس بغريب عليه ... لا

.. ولا هذه المدخنة السوداء العالية ... ودارت العربة جهة اليمين فى طريق أفضى إلى ساحة واسعة تشقها بضعة خطوط ترام وتقوم فى زاوية منها كنيسة ضخمة تعلوها القباب والأبراج .. هبطت الشمس من ورائها فصبغت قممها بلون الأرجوان .

هذا المنظر أيضا ليس بغريب على ناظريه .. إنه يستطيع أن يجزم بأنها ليست المرة الأولى التى يمر فيها بهذا المكان .. ولكن متى كانت المرة الأولى .. منذ بعيد .. أم قريب ؟! لا شك منذ بعيد جدا .. فالصورة فى ذهنه شاحبة باهتة .

وزاد انحراف السيارة يمينا وعبرت الساحة سائرة فى طريق قامت المبانى على يمينه ، وعلى يساره امتد سور حجرى منخفض حجز الطريق عن شاطئ النهر ، ومن ورائه من خلال الأشجار المتدلية فروعها .. بدت مياه النهر تترقرق متألقة فى أشعة الشمس الهابطة .

واستراحت نفسه إلى المنظر الجميل المرسوم أمامه .. واستغرق فى تأمله ، ولكنه لم يلبث حتى أفاق على صوت رفيقه يصيح بالسائق :

ـ يمينك .. عند الباب القادم .

ووقفت العربة وهبط صاحبه فنقد السائق أجره ، ولم يجد بدأ من الهبوط وراءه ، وسارت العربة ، ووقف الاثنان فى مدخل عمارة ، ورفع صاحبه بصره إلى أعلى ، ثم تلفت حوله كمن يبحث عن شىء .

عمن يبحث صاحبه ؟. إنه لا يبدو على معرفة جيدة بالمكان فهو يتلفت تلفت الباحث الحائر .

ترى إلى أين هما ذاهبان ؟

إنه بالطبع لا يدرى .. كما لا يدرى دائما أى شىء عن كل شىء .

ولكن هذه المرة .. أليس من حقه أن يدرى ؟!

إذا كان لم يدر فيما سبق .. أليس من الواجب أن يدرى الآن ؟!.

أجل .. أجل .. لابد أن يعرف إلى أين يذهب به صاحبه .. هذا أقل ما يجب معرفته .

وتقدم من صاحبه وقد رسم على شفتيه بسمة هادئة وسأله متأدبا :

ـ إلى أين نحن ذاهبان ؟

ومد صاحبه يده متأبطا بها ذراعه فى ود وصداقة ، وقال كأنما يذكره :

ـ إلى الدكتور محمود .. محمود توفيق .

الدكتور ؟ !! الدكتور محمود توفيق ؟!! من هو ؟ إن صاحبه يذكره كأنما هو شخص معروف لديه .. وكأن حضورهما إليه كان أمرا معروفا سبق الاتفاق عليه .

ليس أمامه سوى الموافقة .. لا داعى للمناقشة البتة .. هذه أشياء تبدو كأنه يجب أن يعرفها .. ومصيبته أنه لا يعرف ما يجب أن يعرفه مما لا غبار على عدم معرفته .. إنه لا يعرف شيئا أبدا .. ولذا فمن الخير أن يوافق فى هدوء ويسر .. وأن يقنع من الفهم والمعرفة بالصمت والسكوت .

وفى تلك اللحظة بدا « بواب » نوبى بجلباب أبيض ولفافة رأس بيضاء ، فأشار إليه صاحبه متسائلا :

ـ الدكتور توفيق فى أى دور ؟

ـ الدور الخامس شقة نمرة ٢٧ .

وتقدم البواب إلى المصعد ففتحه وتبعه الاثنان فدخلا المصعد .

الدكتور توفيق ؟.. من هو؟ ولماذا يذهبان إليه ؟ لعل بصاحبه علة لأنه هو نفسه لا يشكو من شىء .

وماله هو يتجشم كل هذه المشقة ... ما دام الأمر لا يعنيه !

إنها مسألة صداقة .. على أية حال لا ضير عليه من مرافقة صاحبه .

ووقف المصعد ، وفتح صاحبه الباب .. ثم عبرا ممرا ضيقا إلى باب مفتوح علقت عليه لافتة زجاجية كتب عليها « دكتور محمود توفيق أخصائى الأمراض النفسانية » وفى صمت دلف صاحبه إلى الداخل .

أمراض نفسانية ؟!

ويحه .. من منهما المصاب ؟! هو أم صاحبه ؟!

هو الغريق التائه الشارد الذاهل الذى لا يذكر ولا يدرى ! أم صاحبه الذى قاده وتولى أمره حتى الآن ؟! حمدا لله . إنه لم يسأله شيئا حتى لا يفضح نفسه .

إنه يذكر الآن أنهما قد قاما برحلتهما هذه فى سبيل الذهاب إلى هذا الطبيب .. من أجله هو.. هوالضائع أبدا فى غيبوبة من الرمال والأمواج .. هو الذى لا ينام ولا يستيقظ .. الذى لا يفرق بين السبات والصحو ، بل يحيا فى خليط من هذا وذاك .. شىء واحد هو الذى يجده ملموسا مجسدا فى سباته ويقظته .. هو هذه الحقيبة التى يشدد عليها قبضته ، والذى يشعر أن فيها حتفه ، ومنها حياته .

واستقبلهما رجل يرتدى معطفا أبيض قادهما إلى صالة رصت بها بعض المقاعد والأرائك ، وبدا فى مواجهتها باب متسع يفضى إلى شرفة تطل على شارع « ماسبيرو » الموصل بين طريق الملكة و « كوبرى أبو العلا » .

وسألهما الرجل الانتظار حتى ينتهى الطبيب من زائر لديه .

ووقفا برهة يدوران ببصريهما بين الصور المعلقة فى الحائط ثم سأله صاحبه :

ـ أنتظر هنا أم فى الشرفة ؟

وتجاوز ببصره باب الشرفة ورنا إلى الأفق البعيد حيث الماء المنبسط فى رجرجة خفيفة متألقة وقد اختلط لونه البنى بلون الشمس

الهابطة الذهبية الأرجوانية ، ولم يكن هناك وجه للموازنة بعد هذا بين الصالة والشرفة ، فقد أخذ المنظر بألبابه ، وأجاب صاحبه فى شبه رجاء :

ـ الشرفة أفضل .

وتقدما إلى الشرفة وجلس كل منهما فى مقعد مريح من القش ... وعندما أطمأن إلى سلامة الحقيبة فى يده رنا يبصره وراء سور الشرفة الحديدى مطلقا تنهيدة راحة .

كان المنظر رائعا حقا ... الطريق لا يبدو منه إلا حافة ضيقة من الرصيف العريض الأقرب للشاطئ وقد صفت عليه أشجار الفيكس العريضة الورق ، الداكنة الخضرة ، المطلقة الفروع ، بلا تشذيب حتى لتكاد تتشابك وتتعانق .. وقد بدا وراء جذوعها السور الحجرى المنتظم الواطئ . ويلى الشجر والسور صفحة النهر العريض المنساب فى رفق .. المنبسط فى عنفوان وتؤدة ... وفى الناحية اليسرى بدت الكنيسة ذات القباب التى ينتهى عندها امتداد الطريق بجوار النهر ويبدأ انحرافه حولها ... وعلى النهر نفسه بدا كوبرى قصر النيل ، وعلى وجه أدق ، طرفه البعيد .. إذ حجب الطرف القريب الثكنات الحمراء والكنيسة البيضاء ، وفى الناحية اليمنى بدا « كوبرى أبو العلا » تنساب العربات والترام أسفل الهيكل الحديدى الممتد فوقه .. وفى الناحية الأخرى من الشاطئ بدا خليط من الفيكس والبانسيانس والجوكوراندا قامت وراءها فى الناحية اليمنى العمارات العالية على الجانب الآخر من الطريق ... وفى الوسط انبسطت ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبعض الأبنية الصغيرة المشيدة فيه ، وفى الناحية اليسرى بدا المتنزه القائم على حافة النيل وفى وسطه الجامع بمئذنته العالية الشماء .

وظل يقلب بصره بين الأشجار والمساحات الخضر ومئذنه الجامع وقباب الكنيسة ، حتى استقر أخيرا فوق صفحة الماء المنبسطة إلا من تجعدات خفيفة تحدثها هبات النسيم .

وتعلق بصره فى التجعدات التى بدت كـأمواج رقيقـة ناعمـة ، وبـدأ يحسن أن التجعـدات البادية علـى صفحـة المـاء قـد أخـذت تـزداد شـيئا فشيئا ، وأن النسمة الرقيقة التى كانت تهـب علـى صفحـة المـاء أخـذت تشتد وتقوى .

وبدأ النسيم يصفر حتى أضحـى ريحـا .. والتجعـدات تعلـو فتصبـح موجا .. والصياح يتعالى من وراء الموج حتى صار هديرا وزئيرا .

وزادت قبضته ضغطا على يد الحقيبة .

مرة أخرى بدأ الصراع ... إنهم لا شك يريدون الحقيبة ، يريدون أن يعرفـوا مـا بهـا ليوقعـوا بـه ... وارتفعـت موجـة عاتيـة فلطمتـه لطمـة شديدة .. كـان عليـه فـى هـذه المـرة أن يفـر إلى الشـاطئ .. إن المسـألة ليست باهينة ، بل تحتاج إلى جهد شديد ... هيا .. لا تنـى ولا تكـل .. ضع قدميك على الشاطئ .. أجل .. هكذا أمسك الرمال بكلتا يديك .. لا .. لا بل بيد واحـدة .. إيـاك أن تفلـت الحقيبـة ! هـا قـد وصلـت .. الرمال ثقيلة .. والضباب على الشاطئ معتم . ولكـن عليـك أن تسـير ، عليك أن تعدو .. اعد .. أسـرع .. انبسـطت سـاحة السـباق وملاعـب البولو فى نادى الجزيرة ، وبغض لا تقف .. انزع قدميك .

ودخل الممرض « التومرجى » إلى الشرفة وقال داعيا الزائرين :

ـ تفضلا .

وتلفت صاحبه إليه وقال فى رقة وفى شبه اعتذار :

ـ أظن من الأفضل أن تنتظرنى .. سأحدثه برهة ثم أدعوك .

لم يجبه بكلمة ، فقد كان منهمكا فى العدو ، وكان يعدو فى الرمال والضباب هاربا من شىء ، متلهفا على شىء .. كان لا يكـاد يشـعر بمـا حوله ، لا يرغب فى أكثر من أن يتركوه . وصمت لا يحدث أحدا ، ولا يحدثه أحد .

وتبع صاحبه « التوموجى » إلى حجرة الطبيب ، فعبرا الصالة إلى ممر ضيق أفضى بهما إلى باب على يمينه .. طرقه « التومرجى » وسمع نداء رقيقا يعلو من ورائه :

ـ تفضل .

ودفع « التومرجى » الباب وأدخل الرجل ، ثم أغلق الباب وراءه .

ومن خلف مكتب صغير نهض الطبيب يستقبله مرحبا وهز يده فى حرارة قائلا :

ـ أهلا بك .. كيف الحال ؟! مضت مدة لم نتقابل ؟

ـ سنتان على الأقل .

ـ كانت آخر مرة رأيتك فيها فى محاضرة الدكتور نصيف فى دار الحكمة .

ـ أجل .. أجل .. وأظننا تقابلنا بعد ذلك فى الأوبرا .

ـ كانت مقابلة خاطفة لا تحتسب .

ـ تفضل .. اجلس .. خيرا إن شاء الله .. أى ريح طيبة دفعت بك إلينا ؟!

ـ ليست طيبة تماما ... إنها عاصفة بعض الشىء ، هذه أول مرة أحضر لك هنا .. عيادة لطيفة ، أنيقة ، وواجهة تشرف على منظر لطيف .. ولكن يبدو أن موقعها ليس « صقعا » .

ـ لا ضرورة للموقع « الصقع » ... المهم ... الزبون « الصقع » .. نحن لنا زبائننا الذين يبحثون عنا يا سيد زكى .

ـ الحال رائجة إذا ؟!

ـ جدا .. رزق الهبل ـ كما يقولون ـ على المجانين ـ إنى لم أحاول من قبل .. الاعتراف بطب النفس ، و لم يخطر لى على بال قط .. أن أطلب من أحد أخصائيه معونه جدية .

ـ على كل حال نحن فى الخدمة .. وعلى استعداد لتقديم كل معونة .

ـ متشكر جدا .. هذا ما كنت أنتظره .

ـ خير أن شاء الله .. ماذا بك ؟

ـ بى أنا ؟!

و لم يتمالك نفسه أن أطلق ضحكة خافتة قصيرة :

ـ لست أنا هذه المرة .. قد أحتاج إليك فى المرة القادمة ..

ثم صمت برهة وأردف قائلا :

ـ إنه صديق عزيز لدى .. عزيز كأخ .. أو أكثر من أخ .

ـ وأين هو ؟

ـ إنه يجلس فى الشرفة .. لقد بدا لى من الخير أن أراك أولا على حدة ، وأن أحدثك عن كل ما أعرف ، مما أجد حرجا فى سرده أمامه ، وأحذرك من بعض ما يجب الحذر منه ، حتى لا تضايقه عن غير قصد .

وضحك الدكتور توفيق وأجاب مطمئنا !!

ـ نحن لا نضايق هنا أحدا ... إن عملنا هو إن نذهب الضيق ، وأن نريح المريض .

ـ أنا أعرف ذلك .. ولقد قلت إنك قد تفعل ما يضايقه عن غير قصد .

ـ لا عن قصد ، ولا عن غير قصد .

ـ الظاهر أنك تريد أن تضايقنى أنا عن قصد .

وضحك توفيق وأجاب :

ـ أتم حديثك ، لن أضايقك بعد هذا .

ـ قلت إنى فضلت أن أراك على حدة حتى أسرد لك المسألة برمتها ، وأذكر رأيى كطبيب باطنى حاولت علاجه وأجريت عليه كشفا تاما ، وفحصته فحصا دقيقا .

ـ وماذا وجدت به ؟

— لا شيء .. لا شيء أبدا .. سليم أربعة وعشرون قيراطا ، النبض منتظم ، والحرارة طبيعية .. والضغط عادى والقلب سليم .. و .. و .. إلخ .

— إذا مم يشكو ؟

— هو نفسه لا يشكو من شيء .. ولا يتحدث عن شيء ..

— إذا ماذا به ؟

— ماذا به ؟

وأطرق برأسه برهة ثم أردف قائلا :

— إنه دائم الذهول والشرود ... دائم الصمت والفكر يبدو كأنه يهبط فى أغوار عميقة بين آونة وأخرى .. أو يظل فى غيبوبة تنأى به بعيدا عنا وعلى وجهه سيماء ..

وقاطعه توفيق متسائلا :

— هل تعود تعاطى أى نوع من أنواع المخدرات ؟

ونفى زكى السؤال بشدة وبطريقة جازمة :

— لا .. لا .. ليس هو ذلك الشخص .. إنه لم يدخن فى حياته سيجارة واحدة .. أنه مخلوق مثالى .. إنى أعرفه تماما كما أعرف نفسى .. ولا شك أنك تعرفه أنت أيضا .. أو على الأقل تعرف اسمه .. إنه إبراهيم محسن الموسيقار المعروف .

— إبراهيم محسن ؟! طبعا أعرفه .. إنى معجب جدا بموسيقاه .. بل إنى لا أكاد أقدر أحدا من الموسيقيين الشرقيين سواه .. إنى أعتقد أنه مخلوق مرهف حساس .. ولا شك أنه قد أصيب بصدمة عنيفة .

— ربما .. ولكن لا أحد يدرى عنها شيئا إلا هو.. وهو ذاهل شارد لا يعى ولا يذكر ولا يتكلم .. أظن من الخير أن أقص عليك ما أعرفه عنه .. وما استطعت أن أحصل عليه من معلومات مما أدى إلى حالته تلك .

وبدأ زكى يسرد حديثه قائلا :

الفصل الثانى

روح فى حقيبه

عرفته ونحن طالبان فى مدرسة الخديوى إسماعيل وكان اسمها وقتذاك كما تعرف « الثانوية الملكية » .

وكانت المعرفة عقب معركة حامية دارت بيننا فى « حارة اليهود » وهى أحدى دروب المدرسة ، وفى ركن قصى منها بجوار « أولى تالت » ، وراء معامل الطبيعة والكيمياء .. وضربته جيدا .. وضربنى جيدا .. وبعدها .. ومنذ ذلك اليوم نشأت بيننا صداقة يحسدنا عليها أحب الإخوة وأعز الأقرباء .

لقد أحببته جيدا ... ولى العذر .. فهو مخلوق .. لا يملك إنسان ، أيا كان ، إلا أن يحبه .

كان .. من يومه .. كما سمعته أنت فى موسيقاه .. رقيق النفس ، مرهف الحس ، ولم أكن كذلك بل كنت على نقيضة عداء كثير الحركة لا يستقر لى قرار ... ومع ذلك فقد علمنى كيف أستقر ، وكيف أجلس فى الفسح بجواره على أحد المقاعد لنتحدث ، أو كيف أسير دون أن أعدو أو أقفز .

ولست أريد أن أسرد عليك تاريخ حياته فلا أظن لدينا من الوقت ما يسمح لنا بسرد تفاصيله .. ثم إنى لا أجد فى ماضيه الشىء غير الطبيعى الذى قد تجد فيه ما يمكن أن تستند إليه فى تشخيص حالته .. فقد كان نموذجا للإنسان المستقيم الناجح المحطوظ .

ولكنى مع ذلك أحب أن أشغل من وقتك بضع لحظات فى وصف شخصيته ونفسيته وخلقه ، وهو ما قد تحتاج إليه أنت وما سيتعذر

عليك الحصول عليه إلا منى .. أنا أقرب الناس إليه والذى أعرفه خيرا من نفسه .

كان أكثر ما يميزه عنا ونحن صبية هو إحساسه الدائم بالذنب .. والعجيب أنه لم يكن هناك ما يدعوه أبدا لهذا الإحساس .. فذنوب « التلمذة » بطبيعتها من التفاهة بحيث لا يكاد يحس الإنسان بحملها .. وهو بالذات كان أقلنا ارتكابا لهذه الذنوب .. إن لم يكن عديم الذنوب.. ومع ذلك كنت لا أفتأ أرى القلق ينتابه بين آونة وأخرى .. لأشياء لا أظنها ـ لو كنت فاعلها ـ بتاركة فى نفسى أى أثر ، أو قل إنى ما كنت أستشعر فعلها قط .

مثلا .. أذكر ذات مرة أنه خرج من أحد الامتحانات حزينا مقطب الجبين ، فظننته قد أخطا الإجابة ، وقلت له مازحا :

ـ لا تكتئب .. فى الملحق متسع للجميع .. دعنا نشترك فيه معا .

ـ أى ملحق ؟

ـ ملحق اللغة الفرنسية .

ـ لمن .

ـ لك .

ـ أنا ؟.. لقد أجبت عن جميع الأسئلة .

ـ إذا فما بالك حزينا ؟

ـ حزين من أجلك .

ـ من أجلى أنا ؟

ـ أجل .

ـ لم ؟!

ـ لقد خمنت ثلاثة أرباع الأسئلة التى أتت فى الامتحان وذاكرتها قبل الدخول بنصف ساعة .. ولو أننى قلتها لك لضمنت الإجابة الصائبة عنها .

ورغم إحساسى بشىء من الخذلان لم أملك إلا أن أجيبة ضاحكا :

ـ لا تحمل لى هما ... لقد أجبت إجابة .. أظننى أستطيع بها أن أنجح .

ـ كنت أستطيع مساعدتك ... ولكننى لم أفعل ... لأنى انهمكت فى استذكارها ولأنى خفت ألا تصدقنى وتضحك على .

وهكذا دائما كان يستشعر الذنب .. لا لأنه ارتكب شيئا بل لأنه قصر فى فعل شىء .. فقدكان يتهم نفسه دائما بأنه كان يستطيع أن يفعل ... ولم يفعل .

ومثل آخر .. أذكره الآن جيدا كأنما حصل بالأمس ، كنا قد تأخرنا فى الخروج من المدرسة ذات يوم ... حيث كنا نشاهد بعض الألعاب التى يقوم بها فريق « الجميناستيك » على الأجهزة ، وعند خروجنا من البوابة وجدنا ازدحاما فى الشارع وشاهدنا عربة الإسعاف وقد تكاكأ حولها الناس ووجدنا الشيخ فضل البواب يصرخ باكيا وعلمنا أن ابنه كان جالسا أمام باب المدرسة ، وتركه الرجل بضع دقائق ليقضى حاجة فعدا الطفل إلى الشارع لاهيا عند ما تصادف مرور عربة مسرعة صدمته صدمة كسرت ساقه .

ومن الطبيعى أن تترك أمثال هذه الحوادث ألما فى النفوس ، ولكن من غير الطبيعى أن يروح الإنسان محملا نفسه بلا أدنى مناسبة عبء مسئوليتها وذنب وقوعها .

لقد تأثرت أنا ... وحزنت بعض الحزن على عمى فضل وابن فضل .. وهكذا فعل كل من شاهد الحادثة .. ولكن إبراهيم لم يكن ليأخذها كما أخذناها بمثل هذه السهولة ، بل كان لا بد له أن يحشر نفسه بين أبطالها ويزج بشخصيته بين مرتكبيها والمسئولين عنها .

وعلمت فى اليوم التالى أنه لم ينم فى ليلته إلا لماما وأنه بكى بكاء حارا ، وسألته فى شىء من الغيظ :

ـ ومالك أنت ؟

ـ مالى أنا ؟ لقد كنت أستطيع منع الحوادث .

ـ كيف ؟

ـ لو لم أقف لمشاهدة اللعب .. وخرجت فى موعدى لرأيت الطفل وهو يعدو فى الشارع ولاستطعت إنقاذه .

ـ كلنا إذن مسئولون عن الحادثة .. بل كل إنسان لا بد أن يكون مسئولا عن حادثة ما .. فما من حادثة تقع إلا كان يستطيع منعها إنسان .. كن عاقلا وكف عن هذا السخف .

وغيره .. وغيره .. لقد كان دائما يحس أنه مقصر فى حق سواه وأنه كان يستطيع أن يفعل خيرا .. ولو فعله ، فإنه نادم لأنه كان يستطيع أن يفعل خيرا منه .

ذلك هو الشىء الذى يمكن أن أعتبره فيه غير طبيعى .. والذى أعتقد أنه لازمه فى كل أدوار حياته بعد ذلك . وأنا نفسى أستطيع إرجاعه إلى تجسد الخير فى نفسه وإلى يقظة شديدة فى ضميره تجعله شديد الحساسية بمتاعب الناس وآلامهم .. شديد الرغبة فى مشاركتهم إياها ، أو رفع حملها عنهم .

ولا شك أنى عندما أصفه بأنه شىء غير طبيعى .. أقصد أنه غير طبيعى بالنسبة للناس .

ولكنه قد يكون طبيعيا بالنسبة له وبالنسبة لطريقة تكوين نفسه وخلقه .

فقد كان ذا نفس رقيقة مرهقة .. نفس فنان مفرط فى الحساسية .

كان فنانا موهوبا ذا أذن موسيقية سريعة الالتقاط ، وكنت أعجب له كيف يقف فى الطريق فجأة ليلتقط نغمة عابرة ويبدو لى أنه يترنح من فرط النشوة ، وكنا إذا ما خرجنا فى المظاهرات أجده قد تسلل من بيننا ، ليذهب إلى أحد محال الأسطوانات فيسترق السمع . مجانا ...

أو إلى معهد الموسيقى حيث يقبع فى أحد أركانه ليسمع دون أن يحس به أحد .

كانت الموسيقى تجرى فى دمه .. ولم تجد المحاولات التى بذلها أهله فى إبعاده عنها ، وفى فرضهم رقابة شديدة عليه تجعله يسير فى طريق التلمذة المحدود .. لينتهى به الأمر إلى مهنة محترمة .. طبيب مثلا .. أو محام .. أو مدرس .. أو .. إلخ ..

وقد سار فى الطريق المرسوم .. سار بجسده وليس بروحه .. ولم يكن فى دروسه بالمفرط فى الذكاء ولا بالمفرط فى الغباء .. كان طالبا ممتازا فى بعض العلوم أذكر منها العربية .. لا سيما الإنشاء والمحفوظات التى كان يجيد إلقاءها وكان ضعيفا فى بعض آخر ، وأذكر منها الإنجليزية ، والميكانيكا .

أقول أنه سار فى طريق الدراسة بجسده .. أما روحه فقد كانت هائمة فى الموسيقى والألحان والغناء .. وأذكر أنه بدأ ينتج ألحانه سرا وهو مازال طالبا .

ولم يكن فى خلقه على طيبته واستقامته ، نبيا .. بل كان مثلنا يكذب أحيانا ويقصر فى واجباته أحيانا .. وكان مثلنا أيضا .. يحب : الأكل .. واللهو .. والمزاح ... والفتيات ، وكانت له مغامراته التى قد تخفى على الجميع إلا علىّ .. وكانت له .. ماذا أيضا ؟ كل شىء .. كبقية البشر العاديين .

ولكنه كان معتدلا .. معتدلا .. معتدلا فى كل شىء .. طبعا عدا ذلك الشىء الذى قلت لك عنه فى أول الأمر وهو معاونة غيره .. وحب الموسيقى ، ولم يكن يدخن ولا يشرب الخمر ولا يتعاطى أى نوع من المخدرات .. ولم يحاول أن يرجع ذلك إلى طبيعته الخيرة .. بل إلى رغبته عن فعل ما لا لزوم لفعله ، وعما يجد فى نفسه حاجة ملحة إليه .

ويمثل هذا التركيب فى خلقه والتكوين فى نفسه جرت حياته : تلميذ فى الظاهر ، وفنان فى الباطن .. لا تخلو من نجاح وسقوط وأفراح وأتراح ، حتى حصلنا على « البكالوريا » معا ، وكان تخرجه من القسم الأدبى وتخرجى من القسم العلمى .

وفى ذلك الصيف الذى حصلنا فيه على الشهادة التى كانت لدينا بمثابة جواز مرور إلى طبقة الرجال ... والتى كانت تنقلنا من تلميذ ثانوى إلى طالب فى الجامعة بينه وبين الوظيفة « فركة كعب » .. فى ذلك الصيف نفسه توفيت والدته .

ولا شك أنها كانت صدمة قاسية عليه .. فقد حزن على فقدها حزنا شديدا .. وأحس وأبوه لغيبتها لوعة أليمة .. فقد خلفت وراءها فراغا لم يستطع أحد بعدها أن يشغله .

ومع ذلك فقد مرت الوفاة كما تمر كل وفاة .. فما أظنها كانت بالحدث الفريد فى نوعه .. برغم أنه تلقاها وقتذاك على أنها كذلك .

مرت ليلة المأتم وهو محطم منهار متداع .. ولم يخل الأمر طبعا كعادته من أن يستشعر من موتها نوعا من التقصير برغم أنه لم يفارقها خلال مرضها لحظة واحدة ... وأنه سهر على تمريضها ، فلم يغمض له جفن الليالى الثلاث السابقة للوفاة .. ولكنه مع ذلك لم يعدم مبررا لاتهام نفسه بالتقصير .. ولم يعدم سببا يعلل به مسئوليته فى وفاتها .

وعاونته ما استطعت على الصبر والتجلد ... وتوالت الأسابيع والأشهر وهى تقرض بأنياب النسيان كتل الحزن الجاثمة التى بدت فى أول الأمر جامدة لا تتفتت .. خالدة لا تتبدد .. حتى أضحت فى النهاية ذكرى نصيبها استمطار الرحمة واستنزال الغفران .

والتحق بكلية الآداب والتحقت بكلية الطب .. وسار كل منا فى طريقه ولكن الصداقة بيننا لم تهن ، والرابطة القوية من الحب والإخاء لم

تضعف .. بل بقى كل منا على وفائه لصاحبه ولهفته عليه برغم تباعد فرص اللقاء ولا سيما فى أوقات الشدة المدرسية أعنى قبيل الامتحانات .

وعاش مع أبيه (الذى كان وقتذاك يشغل وظيفة كبيرة قارب الخروج منها بحكم السن) وتالثهما فى الدار « مدبولى » الطباخ .. أو ثالثهما كلبهما .. فقد كان به من الكلاب شبه كبير .. من ناحية الوفاء والأمانة . وفى تلك الفترة بدأ تحرره من قيود « التلمذة » ولم يعد يأبه كثيرا لأخفاء ميوله ، وبدأ نبوغه يظهر للملأ واحتل فى عالم الموسيقى مكانا مرموقا .

ومرت دراسته العليا دون حادث يذكر .. أعنى حادثا له أثر عميق يتصل بموضوعنا .. فما أظن حياته فترة ذاك قد شابها غير الشوائب العادية التى تشوب حياة فنان فى طريقه إلى المجد .

أظنه أحب بضع مرات .. ففتاة من الجامعة أحبها بحق الزماله ، وفتاة بجوار مسكنه أحبها بحق الجيرة .. وفتاة معجبة أحبته ثم هجرته فوضع لها بضعة ألحان .. وأذكر أنها لوعته وأقضت مضجعه فترة من الزمن لابأس بها .. ولكنه ما لبث أن أفاق .

وغير هذا لا أذكر شيئا ذا بال .. اللهم إلا احالة والده على المعاش وقضاء وقته ما بين الدار فى القاهرة وبضعة الأفدنة التى يملكها فى القليوبية والتى تولى زراعتها لحسابه منذ أن أحيل إلى المعاش .

وتخرج بعد أربع سنوات لم يرسب فيها سنة واحدة ، بل كان تفوقه فى دراسته العليا — رغم اشتغاله بالموسيقى — واضحا ، ووجد نفسه أخيرا قد ألقى من فوق كتفه حمل الدراسة الذى طالما أثقل كاهله ، وأضحى كما يريده والده .. رجلا محترما ذا شهادة عالية .. وبدأ بعد ذلك يفرغ تماما .. لألحانه وموسيقاه ... أو على حد قوله .. يعيش لنفسه .

ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى فقد والده . وكانت صدمته هذه المرة أخف بعض الشيء من صدمته الأولى بوفاة والدته .. أولا لأن الوفاة حدثت بعد مرض طال بضعة أشهر حتى باتت متوقعة بين آونة وأخرى ، وفقدت وقع المفاجأة التى كانت لوفاة الوالدة ، وثانيا — كما يبدو لى — أنه كان يحب والدته أكثر من والده .. فقد كان بالأخير نوع من الأنانية والانطواء .. أضعفت من قوة الصلة التى كانت يجب أن تكون بين الاثنين .

ولست أعنى بقولى هذا طبعا أنه لم يحزن أو أنه لم يحاول كعادته أن يدخل فى روع نفسه وفى روعنا مدى تقصيره فى العناية به ومدى مسئوليته فى وفاته ، وأنه لو لم يفشل فى الحصول على دواء معين لما حانت منية أبيه بتلك السرعة ولاستطاع أن يمد فى أجله .

ولم أناقشه كثيرا فى أوهامه تلك .. فقد تعودتها منه فى كل تافهة تمر بنا فما بالك بوفاة والده !؟

ومرت الوفاة ، دون أن تحدث فى حياته تغييرا يذكر .. فقد كان بطبيعته أميل إلى الاستقرار ، عزوفا عن التغير والتنقل .. فاستمر قاطنا نفس الدار وهى « فيلا » متوسطة كائنة فى حدائق القبة .. مشرفة على المزارع القائمة على أطرافها . كان أبوه قد تولى بناءها على قطعة أرض يملكها ، واستمر محتفظا بالخدم ولا سيما « مدبولى » الطباخ العجوز ، الذى احتل فى الدار مركز المسئول الأول وكان له بمثابة الأب والأم وولى الأمر .

وعاد إبراهيم إلى تأجير الأرض التى ورثها عن أبيه بعد أن كان أبوه قد تولى زراعتها لحسابه إذ لم يكن لديه وقت ولا دراية بمثل هذه المشاكل واكتفى من الأرض ببضع مئات من الجنيهات تدرها عليه فى كل موسم زراعى يبددها فى معاونة نفسه على الحياة للتفرغ للموسيقى

والألحان ومعاونة الناس ومعاونة ضميره على الاستراحة من خوفه الدائم من التقصير فى معاونة الناس .

وأظن هذا كل ما يمكن ذكره باختصار عن حياته وعن خلقه ... وأظننى استطعت أن أرسم لك الإطار الذى أستطيع أن أضع فيه الحادثة المباشرة التى نتجت عنها حالته تلك ..

بقيت مسألة هامة وهى الناحية النسائية فى حياته سواء أكانت عاطفية أم جنسية ، إنه لم يتزوج حتى الآن ، وأنا أعرف إن رأيه كان دائما ألا يتزوج بمحض إرادته .. أو على حد قوله .. إنه لن يلقى بنفسه إلى التهلكة بيديه .. أما إذا دفعته يد أخرى فليس أمامه ألا أن يتقبلها صاغرا .

ولست أشك أن مبعث إعراضه عن التقيد بالزواج هو أنه لم يشعر قط بالحاجة إليه ، فهو لم يحس بنقص فى أى مطلب له سواء أكان لقلبه أم لجسده .. فهو ما يسمونه بالرجل الحسن المنظر . فإذا أضفنا إلى حسن منظره لطف معشره وخفة ظله ودماثة خلقه وشهرته كموسيقار وجدنا أنه لم يكن من المستغرب أن تكون حياته دائما مليئة بأنثى تقدم له فى يسر وبلا مقابل وبلا قيد ما يغنيه تماما عن زوجة تقيده وتطبق على أنفاسه .

ولا أظنه ارتبط بإحداهن ارتباطا طويلا .. بل كان يبدو لى فى بعض الأحيان أنه يحب فى وقت واحد ثلاثة أو أكثر ، ولا أظنه كذلك خدع إحداهن أو خذلها ، بل كان ـ حتى بعد انتهاء العلاقة الوثيقة التى قد تربطه بإحداهن ـ يستمر على علاقة طيبة معها .

مفهوم ؟ .. هل استطعت أن أصفه جيدا من هذا الناحية ؟ أخشى لا .. وأخاف أن أكون أبديته فى صورة زير نساء .. وهو لا شك يتناقض تمام التناقض مع الصورة التى رسمتها له قبل أن أتحدث عنه فى هذه الناحية .

ولا شك أيضا أنك قد تتساءل عن موقف ضميره الوخاز اليقظ الكاره لشقاء غيره ، التواق إلى إسعاده ومعاونته .

ألم يكن أنسب لهذا الضمير أن يهدأ إلى واحدة وينطوى وإياها فى حياة هادئة يستطيع خلالها أن يقدم يد العون والسعادة للزوجة والأولاد ؟! .

حسن .. قد يكون هذا صحيحا .. ولكن تذكر أننى قلت إنه لم يخدع إحداهن أو يخذلها ، بل كان معهن دائما صريحا قويما .. وكان يقول إنه يبادلهن المتعة ، وأنه يسعدهن جميعا ، وأنه يعاونهن بطريقته الخاصة على الحصول على أكبر قدر من الهناء ، ولن يسىء إلى غرضه أنه هو نفسه يفيد المتعة ويحصل على السعادة .

ذلك كان تعليله .. وقد يكون غير مقبول .. ككل تعليل لذنب لا يعدم أن يجد فيه صاحبه ما يبرر به ذنبه .

ولكن لم نسميه ذنبا ، وتلك هى طبيعة الرجال ؟.. ورفقة النساء دائما أشد شيوعا وأكثر متعة من زواجهن .. ولا سيما لفنان قد يعتبر نفسه ملكا مشاعا أكثر منه ملكا خاصا لمخلوق معين ، ويجد أن حريته ووقته أثمن من أن يضيعهما تحت رحمة زوجة . وأنه يجب أن يعيش كالعصفور حرا طليقا يهتف على كل غصن ويغرد على كل فنن .

وهو ـ كما قلت لك ـ ليس نبيا .. بل هو مثلنا تماما .. ميال إلى المعصيات .. يكذب ويهمل ويفسق .. ولكن الفارق بيننا وبينه أننا نرتكب تلك الأشياء فى سهولة وبغير أن نعبأ كثيرا بوقعها على غيرنا ما دام وقعها على غيره ، وقبل أن يتأكد تماما من أنها إذا لم تفد غيره فهى على الأقل لن تضره .. وبعد ذلك كله لا يجد هناك ما يمنع ضميره من الوخز والتحرك .

وثمة مبررات أخرى ـ غير الرغبة فى التحرر من القيود ـ لاستساغته حياة الحرية تلك .. واكتفائه من الزوجة بالحبيبات والرفيقات .. وهو استقرار فى حياته المنزلية وراحة هيأها له العم « مدبولى »

الطيب ، المحنك ، الماهر ، الذى أقام له من نفسه أما وأبا وجعله لا يشعر قط بالمضايقات التى يقاسيها الأعزب ، بل كان يجد كل مطالبه فى الحياة من مأكل طيب ، وملبس نظيف ، ومضجع هادئ مريح ، بلا أى جهد بل بغير إحساس بأن هذه الأشياء تتطلب جهدا ، فقد كان يجدها معدة متوفرة بلا سؤال ولا تفكير .

ومبرر آخر هو انهماكه فى الدراسة الموسيقية ومحاولته إنجاز عمل ضخم كان ينوى — على حد قوله — أن يحدث به عند ظهوره ضجة كبرى .

وأخيرا .. وهو أقوى المبررات وأشدها .. والذى أعتقد قطعا أنه هو السبب الحقيقى .. ما يسميه هو ويقول عنه .. الافتقار إلى اليد الدافئة .. أى إلى المرأة التى يشغف بها حبا .. والتى تطير لبه .. وتذهب عنه صوابه .. والتى تقذف به إلى التهلكة بدفعة من أصبعها .. والتى كان يدعو الله من قلبه .. ألا تصادفه قط .. حتى يظل متمتعا بحريته .

أظننى أستطيع أن أبدا بعد ذلك بسرد الحادثة المباشرة .. وأنا واثق أنك تعرفه جيدا ، وتفهم أى نوع من الناس هو ، وأنك تستطيع أن تؤول تصرفاته وأعماله التأويل الصحيح .

بدأت الواقعة فى أواخر الشتاء من شهر ونصف شهر أو شهرين .

عندما التقيت بإبراهيم .. لقاء مصادفة .. لم يكن أحد منا يتوقعه .. وكان قد مضى على ما يقرب من شهرين لم ألقه .. فلقيته على وحشة وشوق ، وعلمت منه أنه قد عزم على أن يعتكف فى مكان ناء لا يرى فيه أحدا ولا يراه أحد حتى يتمكن من وضع « أوبرا » جديدة .. فقلت له :

— ولم لا تعتكف فى بيتك ؟

— لا .. لا .. لا فائدة .. حاولت أن أقبع فيه فلم أستطع .. أنا أعرف نفسى جيدا .. أنى أريد مكانا خاليا غير مطروق أسجن نفسى فيه .

ـ أظن « قره ميدان » .. هو خير ما يصلح لك ؟

ـ قره ميدان .. حر .

ـ إذا طره .. أظنه « طراوة » .؟ ويمكنك أن تحجز فيه حجرة بحرية .

ـ لا داعى للتعجل .. فأنا وأثق أنهم سيضعوننى فيه بعد إخراج الأوبرا .

ـ إذا إلى أين تنوى الذهاب . أيها المعتكف الكبير ؟

ـ قد أذهب إلى مطروح .. أو الغردقة .. أو أى منفى مشابه .

وهنا خطر لى خاطر وجدت فيه خير حل له فقلت هاتفا :

ـ اسمع .. مالك تذهب بعيدا ... المنفى أمامك معد جاهز لا يكلفك مليما واحدا .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد بيتى فى الإسكندرية .

ـ بيت السيوف ؟

ـ أجل .. إنه خال الآن ولن أذهب إليه قبل ثلاثة اشهر .

ـ والله فكرة .. ولكن ... ؟

ـ لكن ماذا ؟! لن تجد مكانا نائيا منعزلا مثله .. تستطيع أن تمكث فيه كأهل الكهف .. وأؤكد لك أنه لن يسأل عنك إنسان .. وسيمنحك ما شئت من هدوء وخلو بال وشاعرية .. إنه أصلح مكان لنزول الوحى على أمثالك . أظنك لن تجد معتكفا خيرا منه . ألديك اعتراض ؟

ـ لدى اعتراض واحد .. أنت تعرفه .

ـ ما هو ؟

ـ البعوض .. أتذكر الليلة التى قضيتها عندك فى الصيف الماضى .. إنى لم أنم لحظة واحدة .

ـ طبعا لأنه لم يكن هناك استعداد لنومك .. لقد نمت بلا ناموسية .. لأنه لم تكن هناك واحدة خالية .

ـ والبيت حر.

ـ حر ؟! لا تكن أحمق .. لقد نمت فى العام الماضى فى حجرة الاستقبال القبلية .. وكان الوقت عز الصيف .. أما هذا العام فالوقت ربيع وتستطيع أن ترتع فى حجرات البيت كما تشاء .. أؤكد لك أنك ستحتاج إلى التدثر بالأغطية .

وهكذا استطعت إقناعه بالاعتكاف فى بيتى الخالى . والواقع أنى كانت محقا فى إصرارى على إقناعه بالذهاب . فقدكان البيت نموذجا له . فأنا أعرفه جيدا .. وأعرف ولعه بمثل ذلك المكان الكائن فيه البيت وبالمناظر المحيطة به .

سأصف لك البيت وصفا سريعا عاجلا . أنت تعرف السيوف ؟ لا تعرفها ؟ إنها النقطة الكائنة فى مدخل الإسكندرية من ناحية الطريق الزراعى قبل فيكتوريا مباشرة .. أتعرف طريق أبو قير الذى تقوم على جانبيه النخيلات ويسير موازيا للترعة المتفرعة من المحمودية إلى الرأس الأسود .. قبل أن تصل إلى تقاطع طريق أبو قير والطريق الواصل إلى فيكتوريا القائمة عنده نقطة المرور الكائنة بجوار الكوبرى .. قبل أن تصل إلى هذه النقطة وأنت سائر على الطريق الزراعى القادم من القاهرة .. تجد مصرفا موازيا للترعة ولطريق أبو قير ولا يبعد عنهما أكثر من مائتى ياردة .. حيث تقع بين الاثنين أرض الأوقاف الزراعية الممتدة حتى الرأس الأسود . إذا اتجهت يمينك بحذاء المصرف ورأيت طريقا غير مرصوف يسمى طريق النخيل قام على جوانبه بعض النخيل الذابل وأشجار الكافور الجافة ، فإذا سرت فى الطريق بجوار المصرف مخلفا بضعة بيوت متفرقة على الطريق ، وجدت بيتا فخما أنيقا لمستشار ثرى متقاعد يجاوره بيت هو آخر البيوت القائمة فى الطريق ، ولا يبدو بعده سوى

أرض فضاء مقسمة للبناء تنتهى بأراض زراعية تبدو فى أفقها بضعة دور صغيرة .

هذا البيت الذى يجاور البيت الكبير هو البيت المقصود .. أو بلغة العرب بيت القصيد . ومن العبث أن تحاول رؤيته من الخارج فقد تكاثفت أشجار الجازورينا والكافور المحيطة به وتشابكت فروعها وتلاحمت أوراقها حتى أحفته تماما عن الأبصار وأقامت من نفسها غطاء أشبه « بالمكبة » لم تترك خارجها غير السور الخشبى والجاراج ، فإذا تجاوزت باب الحديقة الخشبى فى شارع جانبى وجدت البيت قائما أمامك وسط حديقة متكاثفة معشوشبة أشبه بالقلاع الخشنة رمادى اللون قاتم النوافذ قد أحيطت نوافذه السفلية بحواجز ذات قضبان حديدية غليظة ، ويبدو فى مدخله المواجه لباب الحديقة بضع درجات تفضى إلى الباب ، وفى الناحية الأخرى تبدو شرفة كبيرة ذات حاجز حجرى واطئ وقد دس أسفلها كوم من حطب الكافور الجاف وأصص مكسورة وأحجار وأتربة لم يحاول أحد إزالتها منذ أن غادرته قاطنته الأولى وهى إنجليزية عجوز .

والبيت من الداخل يبدأ بدهليز ضيق يفضى إلى « صالة » صغيرة تطل على الشرفة السابق وصفها ، وقد وضع على يمين الداخل بيانو ضخم قديم وعلى يساره بضعة مقاعد .. وفى المواجهة سلم رخامى يتجه إلى اليسار يؤدى إلى الدور الثانى الذى احتوى على غرف النوم والحمام ، وعلى اليمين غرفة الاستقبال ، ثم حجرة الطعام ذات المدفأة الكبيرة ثم المطبخ .

ذلك هو ما يحضر فى ذهنى من تفاصيل البيت ، ويبدو لى أن التفاصيل نفسها ليست بذات أهمية بقدر منظر البيت والجو المحيط به .

إن البيت أشبه بقلعة فى غابة .. والعين لا تبصر حوله إلا أراضى واسعة تتناثر فيها بضع دور مميزة بالحدائق المحيطة بها والنباتات المتسلقة على جدرانها وأسقفها الحمراء المائلة الجمالون .

وأسفل البيت يجرى المصرف الذى يحد الحقول الخضراء المتزامية الأطراف الزاخرة بأعواد القصب التى تتماوج أطرافها فى مهب الريح ، ووراء كل ذلك حشد قائم من النخيلات كأنها حراس الأفق .

ذلك هو البيت الذى استقر به صاحبنا ليغرق فى موسيقاه ويضع مجموعة من ألحانه الجديدة ، نموذجا لمعتكف ومثلا لمهبط وحى ، لا يكاد يزعجه فيه طارئ ولا عابر ، ولا يؤنس وحدته رفيق ولا سامر .. اللهم إلا خادمة الأمين وولى أمره وطباخه « مدبولى » .

ولست أدرى كيف مرت به الأيام وقتذاك .. ولكنى أعرف بصفة عامة من بضع رسائل قصيرة تبادلناها ، أنه كان راضيا عن البيت وعن حياته فيه كل الرضاء ، وأنه لم تشب صفو أوقاته شائبة كدر ولا ضيق ، وكنت أعتقد أنه مستغرق فى وحدته ، منهمك فى ألحانه ، وأنه يعيش فى البيت النائى أشبه بناسك فى صومعة .. حتى وصلتنى منه رسالة ذات يوم تنبئنى بطريقة يسيرة عابرة .. بأنه خطب .

ولا أكتمك القول أن دهشتى من النبأ كانت شديدة ، فقد كانت خطبته ، وهو فى وحدته تلك ، آخر ما يخطر لى على بال ، ومع ذلك فقد أخذت الدهشة تتبدد تدريجيا ، بعد شىء من التفكير استطعت أن استنبط به الطريقة التى يحتمل أن تكون قد تمت بها الخطبة .

كانت الخطيبة ابنة الجار الذى يقطن البيت الكبير المجاور لبيتى .. ولست أشك — برغم أنه لم يحدثنى عن شىء من التفاصيل — أن المسألة ، اتخذت صورة حب سريع جارف ملتهب اشعلته الجيرة والوحدة وفرط الحساسية ، فأقدم فى غمرة نحبه على خطبتها .

على أية حال لم يكن فى الخطبة شىء يسبب الانزعاج ، بل على النقيض ،كانت — بعدزوال الدهشة المفاجئة — أبعث على الرضاء والغبطة .. فقد كانت الفتاة .. فيما أعتقد — فتاة طيبة الأصل والخلق ، وكان جدها الذى يقطن معه رجلا طيبا موفور الثراء ، ذا مركز محترم ، إذ كان كما قلت مستشارا سابقاً .

وأرسلت إليه أهنئه وأعتب عليه مفاجأته لى وإتمامه الخطبة بهذه الطريقة الخاطفة التى لم تتح لى مشاركتى فرحته وقلت له إنى محتفظ بحقى فى الاحتفال بها عندما نلتقى .

ومرت بعد ذلك أيام أخرى شغلتنى عنه مشاغل الحياة ، حتى وصلتنى منذ بضعة أيام برقية من خادمه يسألنى الحضور حالا .

وكان للبرقية وقع شديد الأثر على نفسسى ، وذهبت بى الظنون أسوأ المذاهب ، وأوجست منها أشد المخاوف ، ولم أملك سوى الإسراع لأعرف جلية الأمر .

وبعد نصف ساعة كنت أجلس فى أول قطار يذهب إلى الإسكندرية . وكنت شارد الذهن خلال الطريق وأخذت أوطن النفس على قبول شر النتائج ، ولكنى لم أكد أصل إلى البيت وأقترب من الحديقة حتى بلغت مسامعى أصوات موسيقى لا تخطىء مصدرها أذناى .

لقد كانت موسيقاه ... هو .

وأحسست بالطمأنينة تعاودنى ، والسكينة تملأ نفسى .. وحثثت الخطا متجها إلى الشرفة المطلة على الحديقة والتى لم يكن بابها مغلقا ، ودفعته فانفتح أمامى ، ووجدت إبراهيم جالسا أمام البيانو منهمكا فى العزف .

وأحسست من رؤيته سليما بفرحة لقاء الغائب الميئوس من لقائه .. فما شككت لحظة من البرقية التى وصلتنى أنى فقدته أو أوشك أن أفقده .

وإلا .. فما الداعى لتلك البرقية المبكرة التى تدعونى إلى الحضور العاجل ؟

أجل .. لعنة الله على الطباخ الغبى .. ماذا تراه يقصد بعمله هذا ؟

أى من دفعه إلى إهداء تلك البرقية المزعجة لى ؟!

ووقفت خلف إبراهيم ووضعت يدى على كتفه محاولا مفاجأته .

وبدأ لى أنه قد فوجئ فعلا ، بل كانت مفاجأته أشد كثيرا مما كنت أتوقع حتى أضحى الحال مفاجأة لى أنا .

لقد أحسست به ينتفض تحت يدى ، ثم يلتفت بحذر وخشية كأنه مجرم هارب وقع فجأة تحت قبضة مطارديه .

وأدهشتنى نظرات عينيه عندما وقعت علىّ . فقد كانت نظرات ذعر وخيفة .. لم يكن بها أقل ترحيب أو ابتهاج بل إدراك ومعرفة .

كان ينظر إلى من فوق كتفه نظرة شاردة ذاهلة وجلة خائفة . وما لبث أن انتفض كعصفور بلله القطر ، وأخذ يتسلل من تحت يدى مغادرا مقعده أمام البياتو وهو ينظر إلى نفس النظر وقد أطبق بإحدى يديه على حقيبة صغيرة حتى اختفى فى الحجرة المقابلة .

ووقفت أرقبه وهو يختفى عن ناظرى فاغرا فاه ، مشدوه النظرات ، معقود اللسان ، وأنا مطبق الشفتين .. لا أكاد أجسر على النطق .

لم أحاول تحيته أو الاستفسار عما به .. فقد كانت نظرته وفراره منى صدمة شديدة الوقع على .. ووقفت برهة حائرا أرقب الباب الذى اختفى وراءه .. محاولا أن أتمالك نفسى وأستعيد ثبات أعصابى .. وهممت باللحاق به لكى أعرف منه حقيقة الأمر عندما بدا « الطباخ » على باب الممر المودى إلى المطبخ .

و لم يكد يبصرنى الرجل حتى اندفع إلى وفى وجهه ما يشبه البكاء والاستغاثة .. وتشبث بى تشبث غريق فى عجلة نجاة وهتف بى :

ــ الحقنا يا سيدى .

ــ ماذا حدث ؟

ـ سيدى إبراهيم .
ـ ما له ؟
ـ لا أعرف .. ولا هو يعرف .. ولا أحد يعرف أبدا .
ـ أخبرنى بالضبط عما حدث .
ـ لا شيء أبدا .. لقد كان سليما أربعة وعشرين قيراطا .. لم يشك من شيء مطلقا .. وفى صباح الأمس عاد من الخارج مطبقا على الحقيبة التى رأيته يطبق عليها ، وقد بدت عليه حالة الذهول والشرود .. وهو لا يميز أحدا .. ولا يرى أحدا ولا يفعل إلا الصمت والحملقة والشرود .. وبين آونة وأخرى تصيبه نوبات تجعله فى أزمة شديدة يبدو عليه خلالها الألم والإجهاد .. وقد ظننت بما به عارضا طارئا نتيجة إجهاد وحاولت أن أهدئه وأريحه ، وأروح عنه بالمزاح كما تعودت أن أفعل ، ولكنه لم يلتفت إلى ولم يسمعنى .. بل كان ينظر إلى كأنه لا يرانى .. وخشيت أن يكون قد أصيب بالجنون ، ولم أدر ماذا أفعل .. وأخيرا لم أر بدا من الاستغاثة بك .. فأنا أعلم حبك له ، ومعزته فى نفسك ، أرجوك يا سيدى أن تنقذه مما به .. إنها « عين أصابته » ! .

وهكذا ظل الرجل يكرر أنها عين أصابته .. وعبثا حاولت أن أعرف منه أكثر من ذلك ، وعبثا أيضا حاولت أن أعرف من إبراهيم شيئا ، فما رأيت منه أكثر مما رأيت منه أول ما أبصرته ، ولا عرفت منه أكثر مما عرفت من خادمه .. شرود وذهول وأزمة عصبية تصيبة بين آونة وأخرى تجعله يذهب بعيدا فى أغوار سحيقة ويبدو كأنه يقاوم ويقاوم حتى يصيبه الكلال . . وخلال كل ذلك .. لا تخف وطأة يده على الحقيبة قيد أنملة .. بل هو يقبض عليها كأن بها روحه .

الفصل الثالث

جمرة فى الماء

وصمت زكى ، وطرق توفيق برأسه وأخذ ينقر بقلم فى يده نقرات منتظمة على زجاج المكتب .. وطال الصمت وبدا كأن كلا منهما ينتظر أن يبدأ صاحبه الحديث ، وأخيرا تحدث توفيق قائلا :

ـ وبعد ؟

ـ هذا كل ما فى الأمر .. وكل ما وسعنى أن أفعله بعد أن يئست من إدراك علته وفهم ما به ، هو أن آتى به إليك .. ولقد قصصت كل ما يعيه ذهنى عنه لأنى واثق أنك لن تستطيع أن تعرف منه أو من سواه أكثر مما قلت لك .

ـ لقد قلت الكثير ... إنى لأكاد أعرفه الآن معرفتك له .. ولكن أخشى أن تكون قد تركته ينتظر طويلا .. كان يجب علينا أن نرجئ شرحك إلى فرصة أخرى ... حتى لا تدعه يضيق بوحدته .

ـ لا عليك .. ليس أحب إليه من الوحدة .. إنه لا يكاد يشعر بما حوله ... بل إنه فى وحدته أكثر أمنا وطمأنينة .. ما دامت الحقيبة مستقرة تحت إبطه أو فى يده .

ـ عجيب أمر هذه الحقيبة .. أليست هناك أقل فكرة عما بها ؟

ـ أبدا .

ـ ولا الخادم ؟

ـ ولا الخادم ... وأرجو إلا تحاول أنت بجرد مسها أو إعارتها أدنى اهتمام . لا تلق إليها بالا قط .. فهى أكثر ما به حساسية .. تجاهلها تماما كأنك لا تراها .

ـ مفهوم ... مفهوم ... دعه يدخل ... فليس من الحكمة أو الذوق أن نطيل انتظاره أكثر من هذا ، دعه يتفضل .

****

وكان إبراهيم مستندا بظهره إلى المقعد ... وقد مد ساقيه وأخذ ينعم بشيء من الاسترخاء المريح ... كان يحس بفرط حاجته إليه عقب تلك الأشواط المتلاحقة من العدو بين الرمال الثقيلة والأمواج المتلاطمة ... والهروب واللحاق والإغاثة والصراع .

لقد أحب جلسته تلك ... بخضرتها المترامية ونخيلها المتناثر ، وأشجارها المتكاثفة ، وأبنيتها الشامخة ، ومائها المنبسط العريض ... وزرقة سمائها المشوبة ينتف من السحب البيضاء المتلاحقة ... وترك عينيه الشاردتين تستقران فى هدوء على حافة الأفق بين أطراف النخيل ومداخن الدور ، وأرخى أعصابه المكدودة المتوترة ... وبسط أعضاءه المنهكة المشدودة ... عدا ذراعا تركه يشد الحقيبة كأنه عين الثعلب الساهرة .

وانطلقت من صدره زفرة ... أعلن بها رضاءه النسبى عن جلسته تلك ... وأبدى بها أطمئنانه إلى راحته .

ونعم براحته فترة ... ليس يدرى أقصرت أم طالت ... عندما أحس بكف توضع برفق على كتفه ... فكانت بمثابة الإنذار بانتهاء حالة الاسترخاء ... فتوترت الأعصاب ، وشدت العضلات ... وزاد ذراع الحقيبة إطباقا عليها ، ورفع بصره إلى صاحب الكف المنذرة فأبصر وجه صاحبه .

أين كان ؟ ... لقد كاد ينساه . بل لقد نسى أنه هـو الـذى أتـى إلى هنا . هنا ؟!! ما هنا ؟

أف لهذه الذاكرة المعتمة التى لا يبصر من خلالها قيد شعرة ؟

أيسأل ؟ . لا . لا داعى أبدا . ليس هناك خير من الصمت والانتظار .. لابد أن صاحبه سيقول شيئا ، يعلم منه شيئا ... يمنحه بصيصا من ضوء يكشف له هذه الظلمات المتكاثفة .

وتحدث صاحبه فعلا ... ولكن ليس كثيرا ... لقد قال :

— هيا ! .

هيا ... هيا ! ليس عليه سوى الاستجابة .

ونهض فى صمت يتبع صاحبه ، ولم يطل بهما السير كثيرا .

بضع خطوات فقط ثم عبر بابا أدى إلى حجرة صغيرة أسدلت على نوافذها الستائر واستبدل فيها نور النهار بمصباح كهربائى هادئ الضوء وضع فى ركن الحجرة .

وبنظرة سريعة عابرة حذرة استطاع أن يلم بمحتويات الغرفة .

لم يكن بها شىء غير عادى .. بضعة مقاعد جلدية وبضع صور زيتية صغيرة معلقة على الحائط بها أشجار وبحر وسماء وأشياء أخرى من التى ترسم دائما فى هذه الصور الزيتية ، ودولاب وضعت به بضعة كتب ضخمة ومنضدة رصت الأزهار فى إناء فوقها ، وأريكة أو فراش لا يدرى .

هذا ما قد وقع عليه بصره عند أول خطوة خطاها فى داخل الحجرة ، ولكنه لم يكد يخطو خطوة أخرى حتى لمح على يساره مكتبا نهض من وراءه رجل دقيق التقاطيع أميل إلى القصر والنحافة ، وقد وضع على عينيه منظارا ، وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة ، ومد يده وهو يقول مرحبا :

— أهلا ... أهلا ... تفضل يا أستاذ .

وأخذ فى أول وهلة بمرأى الرجل . فتوقف وشد ذراعه فوق الحقيبة ، ولكن سيماء الرجل المطمئنة وابتسامته العذبة الرقيقة... بددت حذره وأضاعت مخاوفه ، وجعلته يشعر أنه ليس هناك ما يوجب الخشية ويدعو إلى الحذر .

ومد يده فشد بها على اليد الممدودة فوق المكتب ، وعاد الرجل الرقيق الحاشية يرحب به :

ـ أهلا ... وسهلا ... تفضل يا أستاذ إبراهيم .

إذا فهو يعرفه ... ويعرف أن اسمه إبراهيم ... ولكن هل هو حقا إبراهيم ؟. طبعا ... لابد أن يكون كذلك ، وإلا لما دعاه الرجل كذلك !

إبراهيم .. أم غير إبراهيم !! ليس عليه إلا أن يكون كذلك ... وليس أمامه إلا أن يجلس على هذا المقعد المريح الذى يعرضه عليه الرجل .

وهبط إلى المقعد الجلدى الكبير وقد رسم على شفتية ابتسامة يرد بها على ابتسامة الرجل الرقيق ... وأمامه جلس صاحبه .

واستمر الرجل فى حديثه .

ـ فرصة سعيدة جدا يا أستاذ إبراهيم .. لقد كنت أتوق إلى لقائك من قبل ... حتى أعبر لك عن أعجابى المتناهى بألحانك الرائعة . أنا أحب الموسيقى من صغرى ... ولى أذن موسيقية حساسة صادقة الحكم أستطيع بها أن أميز اللحن الطيب الأصيل من اللحن الزائف الرديء . ولقد أحسست وأنا أسمع لك أول ألحانك ... وأظن ذلك منذ خمس سنوات ... أنك فنان موهوب عبقرى ... وأنه سيكون لك شأن كبير فى عالم الموسيقى ... ولقد تتبعت ألحانك دائما ، وكنت فى كل مرة أود أن أنقل لك رأيى ... ولكن الظروف لم تتح لى الفرصة ، وأظنك تستطيع أن تقدر بعد كل هذا مدى السعادة التى أشعر بها وأنا ألقاك أخيرا .

كل هذا له هو ؟ لقد ارتاح للرجل من أول نظرة .. ولكنه لم يتوقع قط أن يكون له فى نفسه مثل هذا القدر ... والرجل يبدو فى قوله مخلصا غير منافق .

ولم يعرف بماذا يجيب .... لقد تملكه ارتباك واضطراب مشوب بالرضاء والغبطة . ولم يملك ردا على ذلك سوى أن يطاطئ رأسه ويتمتم كلاما غير مفهوم لأحد ... ولا له هو نفسه .

ولم يكد ينتهى من هذه التمتمة غير المفهومة حتى وجد صاحبه ينهض قائلا :

ـ عن إذنكم دقيقة واحدة .

ثم يتحرك مغادرا الغرفة .

وأحس بشىء من الخوف وهو يجد صاحبه قد خلفه وحده مع الرجل الغريب ، وهم بالنهوض وراءه ، ولكن ابتسامة رقيقة من الرجل ألزمته مقعده ، ولم يملك سوى أن يمنحه ابتسامة مشابهة ردا له على ابتسامته .

ووضع الرجل يده على جرس أمامه بالمكتب وهو يقول :

ـ أظن ليس هناك ما يمنع من مشاركتى فى فنجان من القهوة ؟!

ودخل رجل يرتدى « مريلة » بيضاء ، ولم يجب هو بشىء ... أو لم يحس فى نفسه الرغبة أو القدرة على المعارضة فى شىء .. إن خير ما يفعل هو الموافقة والاستسلام .

وأمر الرجل بالقهوة ، وانطلق الآخر ليحضرها . ثم عرض عليه علبة سجائر فهز رأسه رافضا .. وبعد أن أشعل سيجارة لنفسه عاود حديثه :

ـ كان يجب أن نلتقى قبل الآن ... إنى أعشق الموسيقى . أحس أنها جزء من غذاء الإنسان كالماء والهواء ... أليس كذلك ؟

هذا كلام طيب ... إنه هو أيضا يعتقد ذلك . ولكن ليس به رغبة كبيرة فى الحديث ... إن عقدة لسانه لم تفك بعد .

ولم يملك سوى أن أشار برأسه موافقة منه على السؤال .

واستمر الرجل فى حديثه دون أن يثقل عليه بطلب الإجابة :

ـ كنت أمس الأول فى الأوبرا .. أشاهد الفرقة الإيطالية التى تعمل بها.. سمعت بضع قطع رائعة .. ألم تسمعها ؟

هذه لم يذكر أنه سمعها ، ولا سمع غيرها ، وبهزة من رأسه يمنة ويسرة أجاب عن السؤال .

وعاود الرجل الحديث :

ـ يجب أن تسمعها ، ستعجبك جدا ... وشىء آخر أنصحك أن تشاهده ... « فيلم » عن حياة شوبان يعرض الآن فى سينما ... سينما ... لست أذكر الآن .

وهو أيضا لا يذكر ، ولكن الفارق بينهما أن الرجل لا يذكر السينما فقط .. أما هو فلا يذكر شيئا أبدا .

وتجاوز الرجل عن السينما التى لا تذكر ، كما يتجاوز هو عن كل شىء لا يذكره ... وعاود الحديث :

ـ كنت بالأمس أسمع الإذاعة فسمعت مصادفة إحدى السمفونيات لبيتهوفن وعلمت أنهم يذيعون سمفونية لأعلام الموسيقى يوم الأربعاء من كل أسبوع فصممت ألا تفوتنى بعد ذلك . ولم تكد تنتهى السمفونية حتى تبعها دور من موسيقانا الشرقية القديمة لزكى مراد هو « يا للى جرحت القلب داويه » ... وأؤكد لك أنه أطربنى جدا ... إنى أحب كل أنواع الموسيقى ... ما دام اللحن جيدا ... وإن مقياس جودة اللحن هو الأثر الذى يتركه فى النفس ... وهو نفس مقياس جودة أى عمل فنى .. ولذلك فإنى لا أجد هناك معنى لتقديم العمل الفنى لنفس لا تملك وعيا فنيا ... ولذلك يجب تنمية الوعى الفنى فى النفوس حتى يجد العمل الفنى التربة الخصبة التى ينتج فيها ثمرته .. ويبدو لى أن خير ما فعلت أنت هو تنمية هذا الوعى ... إنى لا أعتبرك مجرد موسيقى ، بل